مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين، وبعد :

فإن المراجع الأساسية التى رجعت إليها عن ذى النون، مراجع محدودة، إنها :

١ ـ السر المكنون فى مناقب ذى النون للإمام السيوطى .

٢ ـ حلية الأولياء لأبى نعيم .

٣ ـ الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى .

٤ ـ طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى .

٥ ـ الكواكب الدرية للمناوى .

٦ ـ مجموعة ما ترجم عن المستشرق نيكلسون .

ثم يأتى بعد ذلك ما هو طبيعى لكل باحث : نص من هنا أو نص من هناك، واستشارة لهذا الكتاب أو ذاك، وكشف فى معجم من المعاجم أو فى أحد التفاسير .

هذه المراجع التى رجعت إليها هى المراجع الموجودة عن ذى النون . ورجوعى إليها وحدها لم يكن عن تقصير فى البحث أو التنقيب، وإنما كان لأنها هى فقط الموجودة .

ومع قلة هذه المراجع فإننى لم أشعر بأننى فى حاجة إلى غيرها، لقد كانت كافية بالنسبة إلى الهدف الذى كان أمامى .

إننى لم أكتب - وما أردت - عن ذى النون : رسالة دكتوراه ، ولا بحثاً أكاديمياً، وإنما أحببت ذا النون، فأحببت أن أكتب عنه لأشرك غيرى فى حبه ، وإن من حق ذى النون علينا أن نعرفه وأن نعرِّف به . . إنه عالم، وهو صوفىٌّ، وهو رجل أخلاق، وهو عبقرية من العبقريات، ثم هو مصرىٌّ .

ولقد أحببته منذ اللحظات الأولى للقراءة عنه .

لقد كان ذلك منذ أكثر من عشر سنوات حينما طلبت إلىَّ الإذاعة - إذْ ذاكَ - أن أكتب المادة التاريخية العلمية عن ذى النون لتتخذ من ذلك أساساً لتمثيلية عنه .

وعشت مع ذى النون فترة قصيرة ولكنها كانت نفيسة .

لقد عشت معه فى سياحاته الكثيرة الممتعة، وقد كان كثير الأسفار، وهو يقص بعض ما حدث له من مقابلات فيها الغرائب وفيها العظات والعبَر .

وعشت معه فى محنته ، وليس أمر المحن ببعيد عن ذوى العبقريات .

إن الجمهور لا يمكن أن يَرْقَى إلى مستوى العباقرة، والعباقرة لا يمكنهم أن يجاروا الجمهور فى مألوفاته .

والعالم يتغير من حال إلى حال بسبب هذا الصراع بين العباقرة والجمهور، ولكن الجمهور يألف شيئاً فشيئاً بعض أفكار العباقرة، ثم يأخذها عادات له، ولكنها هى نفسها تكون منطلقاً لعباقرة يأتون فيحدثون تغييراً ترفضه الجماهير ثم تألفه شيئاً فشيئاً، وهكذا دواليك .

ولقد امتُحن ذو النون وصبر على المحنة التى اعتبرها منحة؛ لقد صبر عليها صبر الراضين الحامدين الذين يرون أن كل ما يأتى به المحبوب محبوب، والمحبوب هنا هو الله.

وخرج ذو النون من محنته خروج الراضين الحامدين أيضاً، فالأمر منه وإليه.

وعشت مع ذى النون متلمذاً على روح صافية ترى الأمور بمنظار الربانيين.. وإن للربانيين نظرة بعيدة كل البعد عن نظرة غيرهم.

إنها نظرة هؤلاء الذين وصلوا إلى:

« كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذى يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا ».

وهذه النظرة التى تكون نتيجة لجهاد النفس طويلاً حتى تَتَزكَّى وتصفو، يهبها الله تعالى منحتين:

* إحداهما:

«وإنْ سَألَنِى لأُعْطِيَنَّه».

* والثانية:

«ولَئِن اسْتَعَاذَنِى لأعيذَنَّه ».

بيد أن هذه النفوس الربانية وصلت إلى درجة لا تسأل فيها إلا سؤال عبادة.

إنها أيقنت بحكمة ربها، وبرحمته، فرضيت بثمار الحكمة والرحمة، وألقت بمقاليدها إلى الحكيم الرحمن.

ولكنه سبحانه قال :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(١) .

وهم يسألونه القرب وهو قريب ، إنهم يسألونه زيادة القرب ، وليس لزيادة القرب نهاية ، وهناك باستمرار قرب هو أقرب مما يسبقه من قرب .

إنه سبحانه يقول :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (٢) .

وهذا القرب هو أملهم ، كل أملهم .

وهم يستعيذون به استعاذة عبادة ، وذلك أنه ـ سبحانه ـ أمر بالاستعاذة :

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣) .

ولكن هؤلاء قد وصلوا إلى الدرجة التى يقول سبحانه عنها :

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤) .

والتى يقول الشيطان نفسه عنها :

﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(٥) .

(١ ، ٢) سورة البقرة : ١٨٦ .
(٣) سورة الأعراف : ٢٠٠ .
(٤) سورة الحجر : ٤٢ .
(٥) سورة الحجر : ٤٠ .

أما غير الشيطان فإنهم لا يرونهم فى الحقيقة، وهل يرى هؤلاء مع الله أحداً. انظر إليه سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

إن الله ـ سبحانه ـ يملك الكيف، والكم، والزمن، والمكان، والحركة، والخلق، والأمر، ويملك القوة، والجاه، والمال، والذكاء، والأنفاس، والبصر فى العين، والسمع فى الأذن، ويملك نبضات القلب، وهمسات الفؤاد.

وهو سبحانه ـ كما يملك هبة ذلك إلى من يشاء ـ يملك نزعه ممن يشاء. إنه.. إليه يرجع الأمر كله.

يقول سبحانه:

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢).

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٣).

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٤).

---

(١) سورة آل عمران: ٢٦.
(٢) سورة الواقعة: ٥٨، ٥٩.
(٣) سورة الواقعة: ٦٣ ـ ٦٥.
(٤) سورة الواقعة: ٦٨ ـ ٧٢.

ويقول سبحانه :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴾ (١).

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

ويقول تعالى :

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ (٣).

ويقول تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ (٤).

إنه الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وإليه يرجع الأمر كله، ولا حول ولا قوة إلا به .

---

(١) سورة عبس : ٢٤ ـ ٣٢ .
(٢) سورة الأنفال : ١٧ .
(٣) سورة السجدة : ٢٧ .
(٤) سورة النور : ٤٣ .

وانظر إلى حديث ابن عباس حينما قال له رسول الله ﷺ :

« يَا غُلام، إنِّى أُعَلِّمُكَ كَلمات:احْفَظ اللَّهَ يَحْفَظْكَ،احْفَظ اللَّهَ تَجِدْهُ تِجَاهَكَ، إذا سألتَ فاسْأَل اللَّه، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللَّه، واعْلَمْ أَنَّ الأمَّةَ لَو اجْتَمعتْ علَى أنْ يَنفعُوكَ بِشَىء لَمْ ينفَعُوكَ إلا بِشَىء قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لكَ ، وإن اجْتَمَعُوا علَى أنْ يَضرُّوكَ بِشَىء لَمْ يضرُّوكَ إلا بِشَىء قد كَتَبَهُ اللهُ عَليكَ ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ » (١) .

وفى رواية :

« احفظ اللَّهَ تَجِدْهُ أمامكَ ، تعرَّفْ إلى اللَّه فى الرَّخَاء يَعرفْكَ فى الشِّدَّة ، واعلمْ أنَّ ما أخطأكَ لمْ يكنْ ليُصيبُكَ ، وما أصَابكَ لمْ يَكنْ ليُخطئُكَ ، واعلمْ أنَّ النَّصْرَ معَ الصَّبرِ ، وأنَّ الفَرَجَ معَ الكَرْبِ ، وأنَّ معَ العُسْرِ يُسْراً » .

إن هذا الحديث العجيب النفيس الفاخر ، هو من شعارات الربانيين :

إنهم حفظوا الله فاطمأنوا إلى حفظه لهم ، وأنه تجاههم .

وتعرَّفوا إلى الله فى الرخاء فاطمأنوا إلى تعرُّفه لهم فى الشدة ، وكانوا له فكان لهم .

إنهم لا يرون معه سبحانه أحداً فى التصريف : وهل معه أحد ؟

تأمَّلْ بربك هذه الآيات :

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١).

إن ذا النون كان من هؤلاء ، ومن أجل ذلك اعتبر محنته منحة ، إنه ما كان يشعر ـ طيلة محنته ـ إلا بالمعيَّة ، وكان يأنس ـ فى محنته ـ بالمعيَّة .

إلام توصله هذه المعيَّة ؟ . . إلى خير بلا شك ، إلى خير أسمى ، أو إلى قُرْبٍ أقرب ، إنه مغتبط بمحنته .

لقد عشت معه فيها مع ندرة الأخبار عنها .

وعشت معه أرافقه فى مجالاته العلمية .

---

(١) سورة النمل : ٥٩ ـ ٦٤ .

وكما جاهد ذو النون حتى تزكَّتْ نفسه، فقد جاهد أيضاً فى سبيل المعرفة: المعرفة فى مجالين على الخصوص، وأعترف ـ فى تواضع لا أُشْكَرُ عليه ـ أننى لم أستطع ـ وقد حاولت ـ أن أجاريه فى أحد هذين المجالين، وهو مجال الكيمياء . .

لقد حاولت أن أفهمه فى هذا المجال فما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ويذكر ابن القفطى أن ذا النون اشتغل بالكيمياء، ويرى أنه وصل فى الكيمياء إلى أن كان من طبقة جابر بن حيان فيها، ويبدو أنه عالج الكيمياء على الطريقة الروحية، كما عالجها على الطريقة العلمية المادية، وكما أجرى التجارب من الجانب المادى فإنه أجراها من الجانب الروحى.

إن نيكلسون يقول:

«ومن الراجح أن ذا النون المصرى كان يستخدم الأدعية، ويستعمل البخور، أو على الأقل كان يفعل ذلك، كما أخبرنا رجل زاره يوماً فرأى بين يديه طستاً من ذهب وحوله الندُّ والعَنْبر يُسْجَر، فصاح به ذو النون قائلاً:

« هل أنت ممن يدخلُ على الملوكِ فى حال بسطهم ».

وإن لذى النون رسائل فى الكيمياء موجود بعضها فى دار الكتب المصرية.

أما المجال الثانى فهو مجال العلم الروحى.

وما من شك فى أن وصول ذى النون إلى الصفاء والنقاء والطهر، أدى به إلى الثمار الشهية من الإلهام المضىء، الذى يعبر عنه فى سهولة ويسر.

وهذا الجانب هو الذى سرت معه فيه، فكان نبراساً جميلاً نهتدى به، ونحب أن نهدى إليه، إنه يتصل بالتفسير الكريم، وشرح الأحاديث الشريفة، والسير على نسق الرسول ﷺ، وعلى نسق المهتدين من الصحابة والتابعين.

ومن هنا كان حبى لذى النون، وتقديرى له وكتابتى عنه، وأرجو من الله التوفيق والهداية.

* * *

obeikandl.com